ميزة الحضارة الغربية

للاستاذ سامي الجريديني

ميزة المدنية الغربية النظام والحرية — النظام المستمد من القانون او من الشريعة ، والخضوع لهذا النظام او لهذه الشريعة باعتبار انها تمثل ارادة الهيئة الاجتماعية وضميرها وباعتبار ان في الخضوع لها مصلحة الفرد والجمعية . ويفقد النظام مزيته وتفقد الشريعة قيمتها اذا كان الخضوع لها على اعتبار انها ارادة قوة لا تُرد ارضية كانت هذه القوة أم سماوية

فالشريعة وهو ما يعبرون عنهُ بكلمة (Loi أو Law) ليست مشيئة القويّ بل محاولة الوصول الى العدل ولذا كان من اركان بنيانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير حتى تبلغ اسمى مطامح الانسان الادبية

ولم تكن الحضارة الغربية قبل خضوعها للمدنية اليونان والرومان واتخاذها هذه الحضارة طعاماً تمثلته ثم هذبته ورقته على هذا المبدأ في تفهم الشريعة بل كانت مثل الحضارات الشرقية تقدس الشريعة على انها ارادة واحد قهار لا على انها عدل وعلى انها لا تتغير الاّ بمشيئة السيد وما مشيئته الاّ حاجة في نفسه إن كان ارضيًّا أو احجية لا تفسّر ان كان سماويًّا

ومن صفات الشريعة أو النظام انها وليدة الخلق وليس الخلق ناشئاً عنها . فالقانون — أو الشريعة — أو النظام أو الناموس يجب أن يكون معبراً عما في ضمير الجمعية من خلق رفيع . فالخطيئة ليست في انتهاك القانون بل في انتهاك المبدإ الادبي الذي نشأ القانون منهُ . ولذا وجب أن يكون الناموس متغيراً متبدلاً مترقياً ماشياً وراء رقي الاخلاق السامية . لأن اخلاق البشر ابتدأت سافلة وأخذت ترتقي مع الزمن والتكيف بالوسط

إذا نظرنا الى الشريعة بهذا المنظار تبين لنا السر في أن الرجل الكريم هو الرجل الذي يخضع للقانون ويساعد على اطاعته ليس لأن تنفيذه منوط بالشرطة بل لأنه يرى في تنفيذه كرامته فيسلكه الشرط أو الوعد سواء أكان مكتوبًا أم نطقت بهِ شفتاه . فالعهد الادبي يجب أن يسبق العهد المادي

ويترتب على هذا المبدإ مبدأ آخر هو النظر الى الشريعة كوسيلة للخير العام لا كأمر من ذي سلطان . ومن ثمَّ يتعين على كل أحد أن يحترمها بعنايته ويحافظ على تنفيذها لا أن يتملص من قيودها وينظر اليها نظر عدو

فالمدنية الغربية في أرقى مظاهرها تفرض في شعب متمدين أن يعمّ كلّ أفراده شعورٌ لا بالطاعة القانون فحسب بل بالرضا به وبالمساعدة على تنفيذه واحترامه بحيث صار يُقصَد الشعب متمدياً متى كانت افراده ينظرون الى القانون نظرهم الى أداة وضعوها هم لمنفعتهم وان في احترامها وفي المساعدة على تنفيذها عائدة خير للفرد وللجمعية . فقياس المدنية الحقة في الفرد هو في تضامنه مع الحكومة في العمل بالقانون لا بالمساعدة على التخلص من قيوده . فمن ساعد مجرماً على الافلات من حكم القانون ليس خليقاً بأن يكون عضواً في جمعية ذات حضارة حقيقية ، وواجبهُ ازاء القانون واجب الشرطي حذوك النعل بالنعل . ولذا ترى في الشعوب التي لم تضرب بقسط وافر في الحضارة ميلاً الى الهروب من القانون وسروراً بل اعجاباً اذا رأوا المجرم يقاوم الحكومة ولا تجدهم يطيعون القانون الا رهبة من عقاب او طمعاً في ثواب

وهنالك مبدأ آخر يستمَدّ من مركز النظام في الحضارة هو أن للجمعية التي يجب أن يكون النظام لفائدتها الحق في أن تضعهُ هي لنفسها

لأنه اذا كان الاصل في الناموس أن يتكيف حتى يطابق ضمير الجمعية وأن يكون لفائدة الجمعية فلقد صار لافراد هذه الجمعية أو لخيارهم الحق كل الحق في أن يتولوا أمره بأيديهم ، وها نحن نرى الآن كل أعضاء اسرة الحضارة الغربية يقدسون هذا الحق ويستعملونه على اختلاف في الشكل افضى الى اختلاف في أنواع الحكومات

وقد يختلف رأي بعض الناس في صحة هذه النظرية ويشكّون في هل كان من الاصلح والاجدر أن يتولى الشعب امر التقنين أو أن يتركه لسواه ولكن ما لا شك فيه هو ان الحضارة الغربية قد اقرّت المبدأ وأخذت به إن خيراً أو شرّاً فصار ميزة من ميزاتها

* * *

فالنظام أو الشريعة أو القانون الذي جعلناه ركناً من أركان الحضارة الغربية جُعِل لفائدة المجموع لا لفائدة الفرد . وانه في أرقى درجاته محاولة تطبيق المبادىء الخلقية السامية فيكون نتيجة الاخلاق لا سببها . وانه آلة متغيرة متكيفة غرضها مطمح أدبي عال . وانه على كل أحد أن يطيع هذا النظام وأن يساعد على تنفيذه . وأن حقّ وضعهِ وتغييره من حقوق المجموع لا من حقوق الفرد مهما كانت سلطتهُ

هذا معنى النظام في عرف الحضارة الغربية وهو أول ميزات هذه الحضارة

* * *

أما الركن الثاني فهو الحرية وهو ثانٍ في الترتيب ولكنه أول في خطورة الشأن

الايمان بالحرية فخر من مفاخر الحضارة الغربية لم تشاركها فيه الحضارات الاخرى ما تقدم منها وما تأخر

وما هي الحرية؟ إنها تستعصى على التفسير وتكبر عن أن تحد

فهي روح حية لا كتابة أو حرف ميتٌ ولذا استحال على الناس تعريفها ويستحيل علينا تحديدها فنكتفي بأن نذكرها ونقول إنها عقيدة ترسخ في نفس الفرد او الجماعة على أن لا تهتدي الا بهدى النور الداخلي المنبعث من وجدانها تكييف عقلها وضميرها وكل طرق معايشها على هدى هذا النور

على انا اذا بحثنا في تمييز هدى هذا النور فقد نستطيع انقول بأن آثار الحرية تظهر في امور ثلاثة :

اول هذه المظاهر حرية الضمير او حرية العقيدة وهي هذا الحق الذي يجعلك تحكّم مبادئك الادبية السامية في أعمالك ضارباً صفحاً عما يفرضهُ القانون أو ينص عليه العرف او يقضي به الرأي العام

هذه هي الحرية التي خنقت الانبياء بجمعتهم وهم بشرٌ يعيشون في وسط يخالفهم، أن يقوموا على هذا الوسط فغيروا من عقيدته وبدلوا من افكاره وفكوا عنهُ ربط القديم. وهي هي التي جعلت من جاء بعدهم يشكون فيما وضع للعالم من تعليم ونظام فحادوا عما رسم وساروا طريقاً يختلف عما عنده لهم هؤلاء الانبياء. ولكنهُ دليل على انهم يهتدون بهدى الانبياء نفسه هدى الحرية اذ يحكمون الضمير لا التعاليم والروح لا الحرف

فلو اكتفى البشر بحرية رجل عظيم قام ووضع لهم نظاماً وظلوا دهرهم عليه لما كانت للحرية معنى اذ تقف وتجمد ويصبح النظام الذي كان ناقصاً في بدء وضعه عقيماً ميتاً اذا لم تتعهده حريات أخرى بتبديل وتغيير وتكييف. فعلى حرية الضمير قامت عبادة الاصنام وعبادة الحيوان. وعبادة أرباب متفرقين الى عبادة واحد قهار أو رحيم. وحرية الضمير هي التي تمكن بعض الناس ألا يعبدوا لا أولئك ولا هؤلاء وألا يرضوا أن يبيّن لهم غيرهم ما يعبدون وما لا يعبدون

لقد اطلقت المدنية الغربية هذه الحرية من عقالها بعد جهاد طويل ملأ التاريخ ناراً ودماً فصرنا الآن وهي ركن من اعظم اركانها

* * *

وثاني هذه المظاهر حرية الفكر وهي هذا الحق الذي يجعلك تحكم عقلك فيما يقع تحت حواسك أو فوق حواسك فلا تعبأ بما قررته التقاليد أو ما سار عليه الجمهور. فحرية الفكر خلقت العلم وما اوجده العلم من نور وما هيأه من سعادة عقلية ومادية. وحرية الفكر أطلقت العقل من عقاله فاستكشف اسرار الطبيعة وسخرها لخدمته ولذاته. وحرية الفكر تسيّر ابن آدم في طريق جديد لا يعرف له اول ولا يدرك له آخر

ولا نستطيع أن نميز تمييزاً قاطعاً محدوداً بين حرية الفكر وحرية الضمير فنحن لا نعرف أين تنتهي الواحدة وتبتدىء الاخرى لاننا نراهما متصلتين ابداً آخذة هذه برقبة تلك

* * *

وثالث هذه المظاهر الحرية السياسية وهي وليدة الظاهرتين السابقتين ولكنها اكثر منهما أثراً للعين لارتباطها بحياة الانسان الاجتماعية من كل وجوهها

فالحرية السياسية هي خلعُ نير السلطة المستبدة والحقُّ في التشريع . هذان الاساسان كوناها وعليهما قامت ونمت وظهرت بمظهرها الرائع في الحضارة الغربية في هذه الايام

أجل الطرف في تاريخ الشرق واقرأ بإتمام فلسفة حضاراته تجدها بعيدة عن الحرية التي فسرناها لك بعداً شاسعاً . فكأن الروح الشرقية موحدة لا غير والتوحيد يفرض اجتماع كل الصفات في شيء واحد ومنها السلطة المدنية ومتى تم لكائن واحد ان يجمع السلطان في شخصه سار حتماً الى الاستبداد فالى انتزاع الحرية من الجمهور

وان الحضارة التي لا تقوم على الحرية لحضارة مادية يابسة لا تلبث ان تموت ماقراً. فقد تزهو في وقت معلوم لغرض معلوم ثم تنظر فاذا بها كأن لم تغن بالامس . فالحضارات في الشرق — دع عنك الحضارات الاسلامية في أرق مظاهرها — تركت لنا الاهرام وتركت الابراج وخلفت الهياكل والمقابر وقد تكون قد وضعت مبادىء هندسة أو الفلك ولكنها لم تترك لنا روحاً حية ميراثاً للابناء عن الآباء . انها ابقت آثاراً مادية قد تبقى على الدهور ولكنها تركت شعوباً يتلقفها الفاتحون غاز في اثر غاز . ذلك ان المادة شيء والروح شيء آخر

وان الحضارة التي لا تخلف في تركتها روحاً حية وتجمع كل ثروة العالم المادية لحضارة فقيرة جد الفقر

* * *

قد يرى القارىء تضارباً في وصفنا المدنية الغربية بالنظام والحرية وهما ركنان يتناقضان كثيراً اما نحن فنقول ان سر هذه الحضارة هو في اجتماع هذين النقيضين . فان الجهاد لنيل الحرية يجعل النظام حياً متغيراً متكيفاً كما ان حب النظام يحفظ هذه الحرية من التدهور الى الفوضى. على انهما ليسا بنقيضين بالمعنى الصحيح بل حالتي نفس متمدينة متمكنة من شعب اخذ امره بيده

وإننا نرى أن للمدنية الغربية ميزة أخرى قد تكون وليدة الركنين الذين شرحنا ظاهرتيهما ولكنها بارزة بروزاً جديراً بان نحلها محلاً منفصلاً عن ذينك الركنين ، تلك ميزة الاندماج والتكيف

فالمدنية الغربية لم تتخذ لها مكاناً قصياً عن بقية المدنيات بل اخذت عن سواها وامتصت وتمثلت ما اخذته وهي لا تزال تتطور شأن كل مخلوق حي

والشعوب المتحضرة بالحضارة الغربية ليست إلاّ نسلاً خليطاً قوام نسبه الاندماج بسواه

والتطور مع هذا السوى . وانه ليجدر بنا أن نتذهم هذا الخلق تفهماً حقاً . فرحابة الصدر في الشعوب وحب الاختلاط وازالة ما يمنع الاندماج خير ما يتاح لشعب يرغب في حياة خليقة بهذا التمدن

هذه الروح خلقت الامة الانكليزية وخلقت امة اعظم هي الامة الاميركية بل هي ام القوميات الاوروبية كلها

ولكننا لم نعبأ بها في الشرق . فالترك مثلاً حكموا دهوراً على غير هذه القاعدة وكم يكون ملكهم عظيماً لو أدمجوا الارمن أو العرب أو الروم واندمجوا بهم اذاً لكانت هناك قومية تركية ولكنهم كانوا إلى العصبية أميل : الدينية ساعة والجنسية ساعة أخرى

بل انظر الى تلاميذهم من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين وعراقيين ومصريين تر روح الانزواء ظاهرة ظهوراً واضحاً . فاللبناني يغضب اذا جاوره ارمني وأحب أن يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدهم بشراً لهم ما لجميع البشر من حقوق في آمال ومطامح

كل هذه آيات تدلك على ان الشرقي بعيد عن الفكرة السخية في تكوين القوميات القائمة عليها الحضارة الحالية

ولهذا الخلق الذي نحن به متخلقون اسباب شتى ليس في المقام متسع لبحثها ولكنها مهما تعددت الاسباب فالاشياء بنتائجها والنتيجة المتحصلة من تدرج حياتنا السياسية والاجتماعية لا تتفق مع ما قدمنا من ميزات الحضارة الغربية

وليس معنى ذلك اننا اقوام لا نليق بشخصيات دولة مستقلة . لا ، وليس معنى ذلك اننا لن نكون اصحاب سطوة وتفوذ دولي او اصحاب حكومات ترافق اخلاقنا فنعيش دنيانا عيشة راضية . لا ، بل معنى ذلك أننا بعيدون بعداً غير شاسع في بعض الاحيان وشاسعاً في بعضها عن الحضارة الغربية الحقيقية المتسلطة على العالم الآن

وقد يكون في هذا البعد السعادة عند بعضنا او الشقاء عند البعض الآخر فهذا ليس في بحثنا وليس الذي نقصد اليه . انما نقصد ان نبين اننا قد أخذنا كثيراً من اساليب الحضارة الغربية فنقلنا الكثير من قوانينها ومن طرق معايشها ومن دساتير حكوماتها فهل نقلنا مثل ذلك من الاسس التي قامت عليها عندهم هذه الدساتير والقوانين وطرق المعايش ، وأهمها أساس القومية كما شرحناه في كل ما تقدم ؟ هذه هي النكتة ، أو على رأي شكسبير هذا هو السؤال

إننا نخشى أن نكون قد شرعنا في البناء على غير أساس متين فأخذنا في هندسة البناء الظاهر وفي زخرفة الجدران والابواب وأهملنا الاساس . وليس ذلك تعمداً منا ولا جهلاً بل ميراثاً ورثناه عن آبائنا أو عن الارض التي أنبتتنا (عن كتاب « الرسائل الضائعة »)